أيقال : اكتشف الشيء ؟

للعلّامة الأب أنستاس الكرملي

عضو مجمع اللغة العربية الملكي

١ — مقدمة البحث

كان الكُتّاب — قبل نحو مائة سنة خلت — يستعملون في كتاباتهم « اكتشف الشيء » بمعنى وجدهُ ووقف عليهِ وكان مجهولاً او خفيًّا على اغلب الناس . ثم جاء بعض حملة اليراع من ابناء وادي النيل وقالوا : هذهِ الكلمة لا وجود لها في معاجم اللغة ، فتجنبها المتفصحون ونبذوها نبذ النواة ، واذا جاءت على اسلة قلم احد الادباء ، رموه بالجهل واستعمال كلام المولدين او العوام الذين لا يعرفون من الكلام الصحيح الفصيح شيئاً مذكوراً

٢ — فصحاء الكتاب الذين استعملوها

اشتهرت هذه اللفظة « اكتشف الشيء » في القرن الماضي حتى استعملها السيد ابراهيم ابن علي الاحدب صاحب فرائد اللآل ، والشيخ يوسف الاسير والشيخ الجليل فارس الشدياق اللغوي الشهير والشيوخ ناصيف اليازجي وابناه ابراهيم وخليل والمعلم بطرس البستاني وابنه سليم وغيرهم من البستانيين ، الى كتاب آخرين لا يحصى عددهم ومن بينهم الدكتور يعقوب صرّوف ولا يزال يتخذها فريق من حضنة العلم وحملة اليراعة الفصيحة الى عهدنا هذا . وكان ابراهيم اليازجي ممّن استعملها في مجلته الضياء الى آخر سنة منها اي الى سنة وفاته . وليس الشيخ ابرهيم ممن لا يعتدُّ بكلامه ، بل هو الحجة العظمى والثبت الأكبر

والمعلم بطرس البستاني ذكرها في ديوانه (محيط المحيط) اذ يقول : « اكتشف الشيء بمعنى كشفه . ومنهُ الاكتشافات لما يكشف من الامور الطبيعية والصناعية » . ولعلك تقول : ان البستاني ليس بحجة وهو كثيراً ما أخطأ في محيطه وادخل كلماً عاميًّا واعتبره فصيحاً ووضع الفاظاً لا صحة لها ولا وجود . — قلنا : « ونحن ايضاً على رأيك . لكن اذا قال شيئاً ووافقهُ عليهِ غيره اصبح حجة . وهذه الكلمة استعملها فصحاء الكتبة في القرن الماضي ، اذن لابدَّ من استعمالها وعدها مولدة ألم تقل فصيحة »

٣ — أنكرها ائمة استعملها

وممن أنكرها المرحوم اسعد خليل داغر في كتابه (تذكرة الكاتب) فقد قال في ص ٢٦ منهُ ما هذا نصهُ : « ومما يجب على المجمع ان يوجه انتباههُ اليهِ هو [1] الكلمات الكثيرة المستعملة الآن في غير ما وضعت لهُ . وليس في كتب اللغة ما يُجَوِّز استعمالها هذا ، الاَّ على ضعف وتكلف . ولكنها شاعت وذاعت حتى بين بلغاء الكتَّاب وليس من السهل ان يستبدل بها كلمات اخرى . فمنها ... الافعال « تفرج » و « تطوَّر » و « أكتشف » وغيرها » اه .

ومع انكاره هذا الفعل ووضع « كشف » في مكانه (راجع ص ١١٣) يقول في ص ٢٣ : ... « وما يجدّ كل يوم من المكتشفات والمخترعات اه »

٤ — ما وضع في مكان اكتشف

لما اطلع بعضهم على انكار استعمال « اكتشف » لعدم وجوده في دواوين اللغة ، اتخذوا في مكانه « استكشف » وهذه لاتؤدي ابداً معنى اخيها . فمعنى « استكشف » طلب او سأل ان يكشف لهُ عنهُ . فأين هذا من ذاك ، ولهذا اصاب صاحب تذكرة الكاتب في قوله : « ويستعملون استكشف بمعنى كشف فيقولون : « يتصرفون في استكشافها والكلام [2] عن الآثار المصرية والصواب كشفها » اه .

لكننا نقول ان كشف واستكشف لايحويان معنى اكتشف ولا يؤديان معناه الاَّ ببعض تكلُّف . اذ في معنى الاكتشاف شيء لايرى في اخويه . فالاكتشاف يكون من بعد ان يزاول الباحث كشف المخفيّ عنهُ ، فيبلغهُ بعد العناء والمعالجة . وهذا سرُّ استعمال الكتبة لهُ وعدم اكتفائهم بالفعلين السابقين . فقد خصَّصوا « الكشف » بالأمور المادية المرئية و « اكتشف » بالامور العلمية والطبيعية والصناعية

---

(١) قوله « هو » بعد ان قال : ومما يجب على المجمع ... هو الكلمات الكثيرة ، زائد لا محل لها هنا والافصح حذفها كما لا يخفى

(٢) قوله « والكلام عن الآثار » غير فصيح ، لانه يقال : تكلم عن فلان أو عن كذا ، اذا كان وكيلا « عنه » أو مدافعاً « عنه » أما اذا كان الكلام بمعنى مجرد القول فيقال : « والكلام على . . . » أو « والكلام في ... » ونحن نذكر شواهد على كل من هذه الاستعمالات الثلاثة . قال الجاحظ (في الفصول المختارة في حاشية الكامل للمبرد ١ : ١٩٥) : « الذين لا يتكلمون عن الكتب المدونة » — وقال ابن النديم الوراق في كتابه الفهرست (ص ٧ من طبعة الافرنج) : « فتكلم عن رسومه وقوانينه » اه — وقال في تاج العروس في مادة (س ل ع) : « ثم رأيت العلامة الشيخ عبد القادر بن عمر البغدادي قد تكلم على البيت الذي انشده الجوهري » وشواهد تكلم فيه ما جاء في لسان العرب في مادة (ك ل م) : « وكأن الكلام في هذا الاتباع انما هو محمول على القول

وشواهد تكلم عنه ما ورد في صحاح الجوهري ومثله في كتاب العين لليث : « عبرت عن فلان تكلمت عنه » . وفي المصباح : « ذبه عن القوم : اذا تكلم عنهم ودفع » — وفي التاج : « مدره القوم . . . المتكلم عنهم » الى غير هذه الشواهد وهي لا تكاد تحصى لتدقق سيلها

٥ — رأي اللغوي فارس الشدياق في تأويل اكتشف

لاحظ الكتّاب منذ بدء استعمالهم « اكتشف » ان فيها بعض التأويل . قال صاحب الجاسوس على القاموس ص ٦١٩ : « اكتشفت زوجها بالغت في التكشف له . وعندي ان المفعول هنا محذوف تقديره : « نفسها » وان الزوج مثال . وهذا الحرف ليس في الصحاح ولا التهذيب ولا المحكم » اه كلام الفارس اللغوي

وانا ازيد على ذلك ان صاحب الجاسوس مصيب في قوله . والدليل ان اكتشف ورد هنا للتمثيل والتنظير لا غير ، اذ قد ورد مستعملاً لغير النساء . قال الطبري في تاريخه الكبير (١ : ١٣١٦ من طبعة اوربة) ما هذا نقلهُ بحروفهِ في حوادث السنة الثانية للهجرة (فتكون الكلمة معروفة في عهد الجاهلية وليست خاصة بالنساء) : « فقام عامر بن الحضرمي فاكتشف ثم صرّخ . واعمراه ! واعمراه ! لخميت الحرب ... »

وكان الاقدمون من السلف يفعلون مثل ذلك في المصيبة العظمى او لبثّ التحمس في صدور الشهود . وراجع في كتب اللغة المطولة معنى شمّر به ، وتجزيء بالاشارة اليه عن ايراد النصوص حُبًّا للاختصار

اذن اصاب فارس الشدياق في اعتبار اكتشف من الافعال المتعدية بعد حذف المفعول به . ولاسيما انهُ ادخلهُ في احصاء امثلة « انتعل » المتعدي

٦ — رأي الشيخ عبد القادر المغربي

كان الامير شكيب ارسلان استفتى الاستاذ المغربي في مجلة المجمع العلمي العربي التي تنشر في دمشق في سنتها ١٣ : ١٤٠ في الفعل اكتشف اذ قال (ص ١٣٩) : « يا أخي ، لفظة (اكتشف) لا توجد في كتب اللغة ، فرأيتها انت في مكان ؟ ومثلها ... » فأجاب الاستاذ الكبير المغربي بقوله (ص ١٤٠) ما هذا نصهُ بحروفهِ :

« (اكتشف — جاء في كتب اللغة ان للاكتشاف معنى غير المعنى الذي يستعملهُ فيهِ الكتّاب المعاصرون . فالاكتشاف في اللغة ان تبالغ المرأة في الكشف عن نفسها في خلوتها مع زوجها . فهو فعل لازم . اما اكتشف في استعمالنا اليوم فتعدٍّ . تقول : اكتشف كولمبوس بلاد اميركا سنة كذا . واكتشف المخترع الفلاني البارود سنة كذا . واذا اعتبرنا لفظ (المرأة) في تفسير الاكتشاف قيداً غير لازم ، بل كما يقال : اكتشفت المرأة لزوجها ، تقول : اكتشف الرجل للغوص في النهر ، واكتشف المريض للطبيب على معنى انهما بالغا في حسر ثيابهما . وفي هذا الحسر ظهور ما كان خافياً — اذا اعتبرنا هذا كان قولنا اليوم (اكتشف) صحيحاً فصيحاً بشرط ان نستعمله لازماً قاصراً على فاعله ،

فنقول : (اكتشف البارود سنة كذا) برفع بارود على الفاعلية ، اي ان البارود ظهر سرّاً للناس تمام الظهور بعد ان كان خافياً . وكذا (اكتشفت بلاد اميركا) و(اكتشف سرّ المسألة) وهكذا ولكن لا نظن ان الناس اليوم يقدرون على هذا الاستعمال بعد ان فشا على لسانهم استعمال (اكتشف) متعدّياً . وعلى هذا يكون فعل اكتشف المتعدّي (مولّداً) ، هدي اليه المعاصرون بنابل من ذوقهم . فهو مثل (تفرج) و(تنزه) و(اختار) و(خابر) وكلها من الصنف الرابع (من الاصناف السبعة للكلمات غير القاموسية) وهذا الصنف اقتى بجواز استعماله خمسة عشر عضواً من اعضاء المجمع وانكر جوازهُ ثلاثة منهم . راجع مجلة المجمع (مجلد ١٢ ص ٥٣٠) فالفتوى اذن على استعمال فعل الاكتشاف » . الى هنا كلام الاستاذ المغربي

وزاد على ما تقدم ما يأتي وهو نتيجة البحث (في ص ١٤٦) : « (اكتشف) كلمة مولدة يجوز استعمالها عملاً برأي خمسة عشر من علماء اللغة والادب المعاصرين » اه كل ما ورد في هذا المعنى في مجلة المجمع العلمي العربي الدمشقية

٧ — انا والدكتور يعقوب صرّوف

في ٢١ (حزيران) يونيو من سنة ١٩٢٥ زرت الدكتور يعقوب صرّوف في مكتب المقتطف فقال لي : ان فريقاً من الادباء وحملة الاقلام يأخذون عليّ استعمال (احترم) و(اكتشف) في مقالاتي . فقلت لهم : اني اراجع محيط المحيط من كتب اللغة لسهولة ظفري بضالتي عند النشادي اياها فيهِ . والكلمتان مدونتان في هذا المعجم . وكانوا يقولون لي : محيط المحيط غير حجة في اللغة . فالكلمتان غير موجودتين في القاموس ولا في لسان العرب ولا في تاج العروس ولا اساس البلاغة الى غيرها من معاجم الاقدمين والمحدثين كالاوقيانوس ومنتهى الارب في لغة العرب الى آخر ما هنالك

ثم قال لي : وما رأيك في هاتين المفردتين ؟ . فقلت له : انهما من افصح كلام العرب ولا غبار عليهما . فقال لي : واين تريان ؟ قلت : اما (احترم) فمدوّنة في اساس البلاغة في غير مظنّتها لكن في مادة (م ل ح) قال : « الملح : الحرمة وان معناه انهُ يحترمك ما دام جالساً معك ، فاذا قام عنك رفض الحرمة » . وذكر الزمخشري ايضاً (احترم) في مقدمة كتاب الادب في ص ٢٣٩ وجاء في المصباح : الحرمة المهابة وهذه اسم من الاحترام مثل الفرقة من الافتراق » اه — وقال البوصيري :

حاشاهُ ان يحرم الراجي مكارمهُ او يرجع الجار منهُ غير محترم

وفي شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد (٢ : ٢٠) «ولولا ان اباها الذي كان بيّنها يحترم ويصان لاجله» الى غير ذلك من النصوص الكثيرة

فلما رأى الدكتور صرّوف جميع هذه الشواهد قال : «حسبي شهادة الزمخشري في الاساس وهو

اعظم المحصح . ثم قال بقي علينا ان نثبت وجود «اكتشف» عند الفصحاء . فقلت له : « يا ايها الدكتور ، ايذن لي ان لا اذكرك شواهدي على ذلك الا بعد عشر سنوات ، لان كتابي سيكرونها ويقابلون على هذا الانكار ، الى ان يقوم احد اللغويين المصريين ليثبت لهم صحته اما اذا لم يجيء احد ليوضح لهم هذه الحقيقة فآتي حينئذ ببراهيني المبينة فصاحة الكلمة » . اما الآن وقد مضى على حديثي نحو تسع سنوات ودخلنا في العاشرة ، وقد انتقل الدكتور صروف الى دار البقاء فاجيء بما يؤيد صحة استعمال (اكتشف) التي لا يقوم مقامها (كشف) ولا (استكشف) ولا اي فعل كان

٨ — فصاحة اكتشف الشيء

اكتشف الشيء من افصح كلام العرب ومن اقدمه اذ هو من باب المجاز فمعنى اكتشف الشيء الهجوم على الحقيقة او على الشيء المخفي وإلقاحُهُ وانتاجُهُ وإنماؤه وبثُّهُ في العالم للانتفاع به . وهو من قول السلف : اكتشف الكبش النعجة نزا عليها » . (اه عن اللسان في آخر مادة كشف) وراجع ايضاً القاموس وتاج العروس وسائر المعاجم المطولة كالقاموس والاوقيانوس واللبوس وكتاب العين ومعيار اللغة الى غيرها

وقد قال صاحب الجاسوس لما رأى كثيرين من اللغويين يقدمون المجاز على الحقيقة مع ان المجاز من اقوى دعائم اللغة (في ص ١١ من جاسوسه) : «ومما احسبهُ من الخلل ايضاً تقديم المجاز على الحقيقة او العدول عن تفسير الالفاظ بحسب أصل وضعها ... » وقال في ص ٦٢ : « ان المصنف (أي صاحب القاموس) كثيراً ما يهمل الحقيقة ويذكر المجاز الذي لم تعرفهُ العرب ..... » او — قلنا : لان من المجاز ما عرفهُ السلف ومنهُ ما لم تعرفهُ والشدياق يشير هنا الى هذا الاخير

وقال الزمخشري في كتابه أساس البلاغة في مادة (ا س ر) : «ومن المجاز : اسروهُ ، ويسروا ماله . وتياسرت الاهواء قلبهُ . قال ذو الرمة :

بتفريق أظعان تياسرن قلبهُ وخان العصا من عاجل البَيْن قادحُ

وهو من فصيح الكلام وعاليه وما فصّحهُ وأعلاهُ الا الاستعارة » اه

قلنا : انظر كيف انهُ قال في الاول : « ومن المجاز . . . . » ثم قال في الآخر : « وما فصحهُ وأعلاه الا الاستعارة » فاعتبر المجاز استعارة وبالعكس وذلك من باب التوسع ولأن المجاز والاستعارة من مصدر واحد . وكذلك يتوسع فيهما أبناء العرب

ونحن أيضاً نقول : ان اكتشف الشيء (والفعل متعدٍ) ما فصّحهُ وأعلاهُ الا المجاز أو الاستعارة . وبهذا القدر ما يثبت ان لغوي المائة الماضية من مسلمين ونصارى كانوا قد وقفوا على أسرار استعمال الكلمة في الاكتشافات العلمية والذين يمنعونها اليوم يختلف ذوقهم عن ذوق العرب السليم ، وعلم ربك فوق كل ذي علم